(10) خباب بن الأرت رضي الله عنه

أوذى فى الله إيذاءً شديداً، وعُذِّب عذابًا أليمًا، حتى أن لحم ظهره ذهب من شيه بالنار، فما نطق بكلمة الكفر، ولا أعطى الكفار ما يريدون، وكانت سيدته أم أنمار تكويه بالنار فى رأسه حتى احترقت، فصبر وتحمل.

مر به رسول الله ﷺ يومًا ورق لحاله، ودعا الله تعالى له قائلاً: «اللهم انصر خبابًا» فأصيبت سيدته بداء عضال[1] ولم يكن لها من علاج سوى كيها بالنار فى رأسها.

فمن هو خباب بن الأرَت ؟ وما هى قصة إسلامه وقصة حياته؟ وما هى مواقفه وجهاده ومشاهده مع رسول الله ﷺ، وجهاده فى سبيل الله بعد رسول الله ﷺ؟ وفى النهاية كيف كانت وفاته؟

***

لم يكن خَبَّاب بن الأرت مكيًا، إنما نجدى من قبيلة تميم، وعندما كان ظلام الجاهلية يخيم على الحياة فى ذلك الوقت البعيد حيث القتل والسرقة والنهب وعبادة الأصنام، أغارت قبيلة من القبائل على بنى تميم، فنهبت الأموال، وقتلت الرجال، وسبت النساء والذرارى. وكان خباب وقتها غلامًا صغيراً، وظل يباع ويشترى وينتقل من يد إلى يد حتى وصل إلى مكة المكرمة، فاشترته امرأة تسمى أم أنمار بنت سباع الخزاعية، وارسلت به إلى حداد من مكة يعلمه صناعة السيوف والدروع، فتعلم خباب الصنعة واتقنها وحذقها.

شب خباب رضي الله عنه عاقلاً حليمًا يريد أن يرى لهذا الليل من فجر، ولهذا الظلم من عدل. كان يبحث عن الحق والنور، ويود لو وجدهما لسافر إليهما المسافات الطوال، وتحمل فى سبيلهما المشاق الصعاب، ويرى أنه ما أتى به من نجد إلى مكة، وما جعله رقيقًا إلا ظلم العادات، وظلام القلوب، وباطل المعتقدات، ولكن قدر الله تعالى كان يريد لخباب رضي الله عنه الخير؛ فلقد أشرق النور ببعثة محمد بن عبد الله ﷺ الذى كثيراً ما سمع خباب عن رجاحة عقله، وصدق حديثه، وسماحته فى البيع والشراء والمعاملات بين الناس.

---

(1) داء عضال: مرض شديد، لا علاج له.

بُعث الصادق الأمين محمد بن عبد الله ﷺ ـ كما يلقبونه ـ برسالة الإسلام من رب العَالمين، فاستبشر الضعفاء والعقلاء خيراً ببعثته، وخباب منهم، ولهذا سارع بتصديقه والإيمان به.

***

ما أن ترامى إلى أذنى خباب رضي الله عنه أن محمداً بن عبد الله ﷺ بُعث بدين يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، حتى مضى إليه مصدقًا به وبما جاء به، غير مبال بما سيلاقيه من عذاب وأهوال جراء هذا التصديق وذلك الإيمان.

مد خباب يده وصافح رسول الله ﷺ وشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله فانضم إلى قافلة الإيمان التى كانت تضم وقتها ستة نفر، وبذلك فهو من السابقين الأولين فى الإسلام، وانضم كذلك إلى قافلة المعذبين المضطهدين التى ضمت بلالاً، وصهيبًا، وآل ياسر، وغيرهم من الذين لم يكن لهم عشيرة تحميهم أو منعة تمنع عنهم.

ما أن سمعت أم أنمار بإسلام خباب، وكفره بآلهتها وآلهة قومها حتى سامته سوء العذاب من ضرب وجلد أولاً عساه أن يعود، فلا يعود. فضاعفت له العذاب وألبسته دروع الحديد، وتركته فى الصحراء المحرقة ليرجع فلم يرجع. فضاعفت له العذاب أكثر وأكثر حتى وصل الأمر إلى كيه بالنار فى رأسه حتى احترقت، ولكنه ظل صابراً ثابتًا على الحق معلنًا إيمانه بالله وحده وكفره بهذه الحجارة التى تعبد من دون الله، متحديًا بذلك الجميع، ومثيراً فى نفوسهم العجب.

ولَمَّا لم تفلح أم أنمار فى محاولاتها مع خباب رضي الله عنه دفعته إلى غلمان لها يضعونه على الحجارة المشتعلة، ويؤخذ خباب رضي الله عنه ويوضع على ظهره، ثم يوضع على صدره الحجر الثقيل حتى لا يقوم، فيحترق لحم ظهره، ولا يطفئ لهيب الحجارة المشتعلة إلا دهن ظهره الذى يسيل. ويتعجب القوم أى صبر هذا، بل أى دين هذا الذى تهون فى سبيله الحياة، وتحرق من أجله الأجساد.

ويشتد العذاب على خباب رضي الله عنه حتى يفوق الإحتمال والوصف، ويذهب يومًا

مع اخوانه المستضعفين المعذبين إلى رسول الله ﷺ فيجدونه متكئًا على بُردة[1] له فى ظل الكعبة، ويشكون له ما يلاقونه ويقاسونه، قائلين: يا رسول الله، ألا تدعو لنا، ألا تستنصر لنا؟. فيجلس الرسول ﷺ وقد أحمر وجهه وهو يقول: «**قد كان من قبلكم يؤخذ بالرجل فيحفر له فى الأرض، ثم يجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر ـ وهو رسالة الإسلام ـ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون**».

ويسمع الرفاق هذه الكلمات فيجدون فيها الصدق والبشرى بنصر الله القريب، فما عليهم إلا الصبر، فإن النصر مع الصبر.

ويعود خباب رضي الله عنه يواصل صبره وتحمله الشدائد حتى أن رسول الله ﷺ مر به ذات يوم، وهاله[2] ما رآه، فرق له، ودعا الله قائلاً: «**اللهم انصر خبابًا**» وما هى إلا أيام حتى أجاب الله تعالى دعاء رسول الله ﷺ لخباب رضي الله عنه.

***

أصيبت أم أنمار بصداع شديد فى رأسها حتى أنها كانت تعوى من شدة الألم مثل الكلاب والذئاب، بحثوا لها عن علاج فلم يجدوا. واشتدت الآلام بها، ومرة أخرى ذهبوا للبحث عن العلاج المناسب لهذا الداء الذى ما سمع بمثله أبدًا، فأخبروا أنه ليس لها من علاج سوى كيّها بالنار على رأسها، فتنسيها آلام الكى آلام الصداع. فتذهب أم أنمار بنفسها، أو يذهب ذووها إلى خباب رضي الله عنه ذلك العبد الذى يعمل حدادًا. وطالما أحرقوا رأسه بالنار، ويطلبون منه أن يحمى الحديد، ويكوى بها رأس أم أنمار، فيرفع خباب رضي الله عنه الحديد المحمى، ويضعه على رأسها وهى تصرخ بشدة حتى يغمى عليها. وهنا يتذكر خباب رضي الله عنه دعاء الرسول ﷺ له: «**اللهم انصر خبابًا**» فيقول فى نفسه: صدقت يا رسول الله.

وتتنوع أساليب العذاب، وتتعدد أنواع الإيذاء الواقعة على خباب رضي الله عنه ما بين عذاب بدنى إلى عذاب نفسى، فقد حدث أن أحد مشركى مكة وهو العاصى بن

---

(1) بردة: عباءة أو كساء يلتحف به.

(2) هالة: أفزعه.

وائل السهمى كان لخباب رضي الله عنه عليه مالاً، حيث أنه عمل له بعض السيوف، ولما ذهب إليه مطالبًا بما له وأجرته. قال له العاصى بن وائل: والله لا أقضيك ولا أعطيك مالك حتى تكفر بمحمد. فقال خباب رضي الله عنه: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. فقال العاصى: فإذا أنا مت ثم بعثت جئتنى. أولستم تزعمون أن بعد الموت بعث، وبعد البعث جنة أو نار؟ أجاب خباب رضي الله عنه: بلى. فاكمل العاصى سؤاله: وتزعمون أن فى الجنة ذهبًا وفضة ومالاً ونعيمًا؟ قال: بلى. قال العاصى ساخرًا: فإن موعدكم الآخرة، فوالله لأوتين مالاً وولدًا، وساعتها سأعطيك حقك. ثم أطلق ضحكة السخرية العالية وهو يمضى بعيدًا عن خباب رضي الله عنه.

وذهب خباب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يشكوإليه، فنزل قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: 80:77].

***

لم يكن خباب بن الأرت رضي الله عنه من السابقين الأولين إلى الإسلام فحسب إنما كان معلمًا ومرشدًا وقارئًا ومقرئًا للقرآن الكريم، فبعد اعتاقه ألحقه رسول الله ﷺ بسعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وزوج فاطمة بنت الخطاب يعلمهما القرآن وما ينزل من أحكام، ويشاركهما طعامهما وشرابهما، حتى جاء يوم علم فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو لم يسلم بعد - بإسلام أخته فاطمه وزوجها سعيد رضى الله عنهما، وكان عندهما خباب رضي الله عنه فتوارى[1] فى ناحية من البيت عندما سمع وقع أقدام عمر رضي الله عنه وصوت يده يطرق بها على الباب، وعندما دخل عمر رضي الله عنه أخفت أخته صحيفة أتى بها خباب رضي الله عنه ليتلو عليها وعلى زوجها ما فيها من قرآن.

دخل عمر رضي الله عنه فبطش[2] باخته وزوجها، ولكنه ما أن قرأ ما فى الصحيفة، وتلا القرآن الكريم حتى شرح الله صدره للإسلام، وقال: ما أحسن هذا الكلام - عندها خرج خباب رضي الله عنه من مخبئه وهو يصيح بسرور: يا عمر، والله إنى لأرجو أن

(1) توارى: اختفى.
(2) بطش: أخذ بشدة وعنف.

يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس وهو يقول: «**اللهم أيد الإسلام بأحب العمرين إليك، عمرو بن هشام، أو عمر بن الخطاب**» فالله الله يا عمر. فقال عمر رضي الله عنه: فدلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم. فقال خباب رضي الله عنه: هو فى بيت عند الصفا مع نفر من أصحابه، وأسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه... وعندما أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة، كان خباب رضي الله عنه من أوائل المهاجرين، وكان من أهل الصُّفّة، وهم فقراء المهاجرين الذين كانوا يجلسون فى مسجد الرسول ﷺ ولا هم لهم إلا حفظ القرآن وترتيله والصلاة مع رسول الله ﷺ والجهاد معه إذا خرج، فإذا أتى الليل أووا إلى المسجد يقضون فيه ليلتهم بين ذكر وقيام ومبيت.

وعندما قامت دولة الإسلام فى المدينة المنورة كان لابد لها أن تصطدم مع أهل الباطل، وتقوم الحروب دفاعًا عن النفس، أو نشرًا للحق والنور. وعند اصطدام جيش الإيمان بجيوش الكفر كان خباب رضي الله عنه المقاتل الشجاع، والمجاهد الذى لم يتخلف عن رسول الله ﷺ فى مشهد من المشاهد، فقد شهد معه جميع الغزوات والمشاهد، وعاش معه مجاهدًا حتى لقى ربه رضي الله عنه، وتولى الخلافة أبو بكر الصديق فواصل خباب رضي الله عنه جهاده وكفاحه حتى تولى الخلافة الفاروق عمر بن الخطاب بعد الصديق رضي الله عنه.

كان عمر رضي الله عنه يعرف قدر خباب رضي الله عنه كغيره من السابقين الأولين وأصحاب بدر، فقد دخل عليه خباب رضي الله عنه ذات يوم فأجلسه عمر بجواره، وبالغ فى احترامه وتقديره، وقال له: ما أحد أحق بهذا المجلس منك غير بلال. ثم سأله عمر رضي الله عنه: ما أشد ما لقيت من العذاب وأذى المشركين؟ فاستحيا خباب رضي الله عنه أن يجيبه. فألح عليه، فكشف خباب رضي الله عنه ظهره، ونظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهاله [1] ما رأى، لقد رأى ظهرًا خاليًا من اللحم. دهش عمر رضي الله عنه وتعجب سائلاً: كيف صار ذلك؟! فقال: يا أمير المؤمنين، لقد أوقد لى المشركون نار وجردونى من ثيابى، ووضعوا ظهرى عليها ثم سحبوني حتى سقط لحمى فما أطفأها إلا لحم ظهرى وشحمه والماء الذى تقاطر منه.

---

(1) هاله: أخافه وأفزعه.

وتمضي الأيام، وترتفع راية الإسلام على بقاع جديدة يفتحها المسلمون، وينشرون فيها نور الله ودينه الذي ارتضاه للناس جميعًا. ويفيض المال ويكثر أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعثمان بن عفان رضي الله عنه، ويصبح خباب رضي الله عنه ذا مال وفير لكبر عطائه، فهو من السابقين الأولين، وأصحاب بدر.

***

سكن خباب رضي الله عنه الكوفة، واتخذ بها داراً وكان كريماً محسناً، لا يرد محتاجاً، ولا يمنع محروماً، ولا ينهر سائلاً، بل إنه كان يضع أمواله من الدراهم والدنانير في موضع من بيته يعرفه ذوو الحاجات دون أن يجعل عليها رباطاً أو وثاقاً، فيدخل الفقير أو المسكين أو المحتاج فيأخذ منه ما يشاء دون استئذان. ورغم هذا فقد كان يخشى أن يحاسب على ذلك المال. وكان كثير الخوف والبكاء على انفتاح الدنيا ومتعها، ودائما يتذكر رسوله ﷺ واخوانه الذين رحلوا قبله وسبقوه إلى الجنة قبل أن تفتح عليهم الدنيا، ويأخذون نصيبهم منها، ويخشى أن يكون هذا الفتح، وهذا المال ثوابا لعمل عمله. فقد كان رضي الله عنه يرجوا أجر الآخرة، ويعلم أن أجر الأجرة أكبر وأبقى، ويدل على ذلك ما قاله عند وفاته.

***

عاش خباب رضي الله عنه إلى أن تولي الخلافة على بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي سنة سبع وثلاثين للهجرة المباركة كان خباب رضي الله عنه قد بلغ من العمر ثلاثاً وسبعين سنة وفيها مرض مرضاً شديداً وطال مرضه حتى أنه قال: لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به.

ذهب جمع من الصحابة يعودونه في مرضه، فقالوا له: أبشر يا أبا عبد الله، فإنك ملاق إخوانك غداً، وترد الحوض على رسول الله ﷺ. فقال: كيف لي بهذا وأنا في هذه الدار ـ يقول ذلك هو ينظر إليها من أعلى إلى أسفل ـ ويكمل: وقد قال رسول الله ﷺ: إنما يكفي أحدكم كزاد الراكب. ثم يبكي ويشتد بكاؤه، ثم يكمل: ما أبكي جزعاً [1] من الموت أو حباً للدنيا، ولكنكم ذكرتموني أقوامًا،

(1) جزعاً: عدم صبر.

وسميتم لي إخواناً مضوا بأجورهم كلها ولم ينالوا من هذه الدنيا شيئاً ، وإنا بقينا بعدهم حتى نلنا من الدنيا ما أخاف أن يكون ثواباً لأعمالنا .

فقال بعضهم : اذكر صحبة النبي ﷺ ، ومشاهدك معه ، فيقول : إن في هذا المكان ثمانين ألف درهم ، والله ما شددت عليها وثاقاً ولا خيطاً ، ولا منعتها من سائل .

وفي اللحظات الأخيرة أوصى خباب رضي الله عنه بأن يدفن خارج الكوفة ، فقد كان الناس آنئذ يدفنون موتاهم على أبواب دورهم ، وفي أفنية [1] منازلهم ، وبعدما أوصى شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ثم لبى نداء ربه تعالى ، ومضى إليه راضياً مرضياً .

وعندما عاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه من موقعة صفين إلى الكوفة ، وقبل أن يدخلها مر بسبعة قبور . فقال ما هذه القبور ؟ فلم تكون موجودة قبل موت خباب رضي الله عنه ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين ، إن خباب بن الأرت رضي الله عنه توفي بعد مخرجك إلى صفين ، فأوصي أن يدفن خارج الكوفة . فقال علي رضي الله عنه : رحم الله خباباً ، أسلم راغباً ، هاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ، وابتلي في جسمه ، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً .

رضي الله عن خباب وأرضاه ، فقد أبدله الله تعالى داراً خيراً من داره ، وأهلاً خيراً من أهله .

*** من فضائل خباب بن الأرت رضي الله عنه :**

(1) قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « رحم الله خباباً أسلم راغباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ، وابتلى في جسمه أحوالاً ، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً» .

* * *

(1) أفنية : جمع فناء ، وهو ساحة في الدار .